أضواء جديدة على آثار بلدة رحاب / المفرق
الاسم القديم للبلدة
وحقيقة تأريخ كنيسة القديس جورجيوس لسنة ٢٣٠م

د. إسماعيل أحمد ملحم

أولًا: الأهمية الأثرية

تقع بلدة رحاب على بعد ١٢كم غربي جنوب مدينة المفرق، وترتفع عن سطح البحر حوالي ٩١٥م. وتعد أحد أهم المواقع الأثرية في محافظة المفرق، إذ تم العثور فيها على تجمع كنسي يضم حوالي ٢٣ كنيسة متوزعة في أنحاء البلدة القديمة، ويعود تاريخ تدشينها للقرنين السادس والسابع الميلاديين. ومن أبرز هذه الكنائس: كنيسة القديسة مريم ودُشنت سنة ٥٤٣م، كنيسة القديس باسيليوس دُشنت سنة ٥٩٤م، كنيسة القديسة صوفيا دُشنت سنة ٦٠٤م، كنيسة القديس اسطفانوس ودُشنت سنة ٦٢١م، كنيسة القديس مينا دُشنت سنة ٦٣٣م، كنيسة تل رحيبة دُشنت سنة ٦١٦م، كنيسة يوحنا المعمدان دُشنت سنة ٦١٩م، كاتدرائية تلعة القرية دُشنت في بداية القرن السادس الميلادي (الحصان ١٩٩٩: ٣٨٥-٣٩٠).

أما كنيسة القديس جورجيوس (جورج) فيؤرخ تدشينها التأسيسي للعام ٢٣٠م وفقًا للنقش الكتابي الموجود في أرضيتها الفسيفسائية (الحصان: ١٣٩-١٤٧)، وسيتم مناقشة هذا التاريخ في ثنايا البحث.

ثانيًا: الاسم القديم لبلدة رحاب

ترد كلمة (رحاب) في قواميس اللغة العربية بمعنى (الواسعة) ومفردها (رحبة) (ابن منظور ٢٠٠٣، حرف الراء الجزء السادس) كما ورد اسمها كضيعة تابعة للبلقاء على لسان الإمام عبد الله بن عامر اليحصبي أحد القراء السبع للقرآن الكريم الذي ولد فيها سنة ٦٢٩م/٨هـ والتحق بدمشق وله تسع سنوات، حيث يقول: (ولدت سنة ثمان من الهجرة في البلقاء بضيعة يقال لها رحاب...) (ابن الجزري ١٩٣٢). وقد أشار ياقوت الحموي (ت ١٢٢٥هـ) في كتابه (معجم البلدان) إلى اسم قرية تدعى (الرُحبة) بضم الراء بأنها ناحية بين المدينة والشام وتقع في طرف اللُجاة (الحرة السوداء) من أعمال صلخد، لكن لم يرد اسم (رحاب) بلفظها المعروف بمعجمه (الحموي ١٩٥٧: ٣٢-٣٣).

وبالتدقيق في النقوش الكتابية التي تم الكشف عنها في كنائس رحاب، فإن اسم البلدة القديمة رحاب لم يظهر إلّا في نقش واحد فقط في الأرضية الفسيفسائية في كنيسة القديس يوحنا المعمدان المؤرخة لعام ٦١٩م باسم (الحصن) وذلك ضمن شريط كتابي طوله ٣٩٤سم وعرضه ٥٢سم: «في عهد جزيل القداسة والوقار المبارك الأسقف بوليقتوس رئيس الأساقفة، رُصفت أرضية هذا المعبد (الكنيسة) وأُهديت إلى القديس يوحنا المعمدان على نفقة المال العام المقدم من أهالي الحصن (القلعة)، وذلك بجهود وغيرة وحماسة الكاهن جورجيوس والزائر سيفيريوس المدير المنتدب (الإكونوموس)، وذلك في شهر (التعين) تشرين الثاني في الزمن الثامن من الخمس عشرية وذلك في عام ٥٤١ من تاريخ الولاية (المقاطعة) (الحصان ٢٠١٨: ٢٩-٣٨) (**الشكلان ١، ٢**).

١. كنيسة يوحنا المعمدان / رحاب، شكل عام.

-ΕΠΙΤΟΥΑΓΙωΤΑΤΟΥΚΑΙΜΑΚΑΡΙωΤΑΤΟΥ
ΠΟΛΥΚΤΟΥ ΑΡΧΙΕΠΙCΚΟΠΟΥς
-ΕΨΗΦΟΘΗΟΝΑΟCΟΥΤΟΤΟΥΑΓΙΟΥςΒΑΠ
ΤΙCΤΟΥ ΙωΑΝΝΟΥΕΚΤωΝΤΟΥ
ΝΟΥΤΟΥΚΑCΤΡΟΥς
-ΤΟΥΑΓΙΟΥΤΟΠΟΥΕΚCΠΟΥΔΗCΓΕωΡΓΙΟ
ΥΠΡΕCΒς ΠΕΡΙΟΔΕΥ ΤΟΥ
ΚΑΙCΕΥΗΡΟΥΟΙΚΟΝΟΜΟΥ
-ΕΝΜΗΝΙΑΠΕΛΛΑΙωΧΡΟΝωΝΟΓΔΟΗCΙΝ
ΔΚΤΙΟΝΟC ΤΟΕΤΟΥC ΦΙΔ
ΤΗCΕΠΑΡΧΙΑC

وغالبًا فإن الأسماء لا تترجم عند لفظها أو كتابتها وخاصة أسماء المدن، لذلك فإن ما ورد في ترجمة نقش كنيسة القديس يوحنا بأن اسم مدينة رحاب هو (الحصن) غير دقيق إذ إن اسمها حسب اللفظ اليوناني هو (كاسترو) وتعني (الحصن) أو (القلعة)، لذلك فمن الدقة أن نستخدم اسم المدينة بلفظه اليوناني في توثيق تاريخ هذه المدينة والذي شاع استخدامه في القرنين السادس والسابع الميلاديين، علمًا بأن مدينة أم الرصاص الواقعة في محافظة مادبا تحمل اسمًا مشابهًا وهو (كاسترون ميفعة) أي (حصن ميفعة) وقد وجد على إحدى أرضياتها الفسيفسائية ويؤرخ للعصر الأموي، لذلك فمن الأنسب أن تُدعى كل مدينة باسمها المعروفة به.

ثالثًا: تاريخ كنيسة القديس جورجيوس[١]

تم الكشف عن كنيسة القديس جورجيوس من قبل دائرة الآثار العامة / مديرية آثار محافظة المفرق عام ٢٠٠٨م بإشراف مفتش الآثار عبد القادر الحصان، وأُرخت وفقًا لنقش كتابي باللغة اليونانية وجد على أرضيتها الفسيفسائية إلى عام ٢٣٠م (الحصان ٢٠٠٠)، غير أن هذا التاريخ أثار جدلًا كبيرًا بين الآثاريين والمحللين حول صحة أن تكون كنيسة القديس جورجيوس قد بُنيت فعلًا في ذلك التاريخ المبكر من تاريخ الديانة المسيحية الناشئة الذي يشير له النقش ومدى دقة أن تكون هذه الكنيسة هي الأقدم في العالم كما تم الترويج لها في حينه، رغم أن جميع الكنائس الأخرى في بلدة رحاب قد أُقيمت في القرنين السادس والسابع الميلاديين.

ولعل أبرز من تناول هذا الموضوع بالنقد هو د. غازي بيشة[٢] الذي أشار إلى أن أتباع الدين المسيحي كانوا في العقود الأخيرة من القرن الأول الميلادي يستخدمون قاعات البيوت السكنية لأداء الصلاة حتى تاريخ تعرضهم للاضطهاد على يد الإمبراطور الروماني ديقلديانوس بين الأعوام (٣٠٣-٣١٣م)، كما في (دورا اوربوس) في سوريا قرب مدينة الصالحية و(مجدو) في فلسطين، ولم يعرفوا الكنائس المستقلة خلال هذه الفترة، كما أشار إلى أن طبيعة الأرضيات الفسيفسائية المكتشفة في كنيسة جورجيوس تعود للقرنين السادس والسابع الميلاديين (الكيالي ٢٠١١).

بُنيت هذه الكنيسة على الطراز البازليكي الذي شاع في العصر البيزنطي والمكون من صالة مستطيلة بطول ٢٠م، وعرض ١٣م مقسمة إلى ثلاثة أروقة يفصل بينها قواعد لأقواس كانت تحمل السقف،

١. القديس جورجيوس استشهد على يد السلطة الرومانية سنة ٣٠٣م في مدينة اللد في فلسطين.

٢. د. غازي بيشة: خبير آثار ومدير عام سابق لدائرة الآثار العامة الأردنية لمرتين خلال الفترات (١٩٨٨-١٩٩٢م) و(١٩٩٥-١٩٩٩م).

٢. النقش الكتابي في كنيسة يوحنا المعمدان / رحاب.

ويتقدمها هيكل الكنيسة المنتهي بحنية باتجاه الشرق وحجرتين جانبيتين، إحداهما لأداء طقوس التعميد والأخرى لغيار ملابس الكهنة. وقد رُصفت أرضية الأروقة بالفسيفساء الملون ذي الأشكال الهندسية الخالية من الأشكال ذات الروح، واستخدمت أشكال المعينات المتجاورة على خلفية بيضاء، ويتوسط كل معين ما يشبه شكل البتلة.

ويوجد في أسفل مستوى سطح هذه الكنيسة في الجهة الشمالية الغربية كهف ينزل إليه بعدة درجات يفضي إلى بهو أطواله ١٢م × ٧م × ارتفاع ٢ـ٢,٥م، نُحتت في أسفل واجهته الشرقية حنية موجهة إلى الشرق بما يشير إلى أنه كان بمثابة مصلى سابق، كما يجاور الكنيسة من الجهة الغربية كهف آخر استخدم مدفنًا لرجال الدين وما زال الموقع بحاجة إلى مزيد من التنقيبات الأثرية.

ولعل وجود المصلى الكهفي في أسفل الكنيسة يشير إلى أنه استخدم على الأرجح قبل تاريخ بناء الكنيسة، وما يعزز هذا الاستنتاج هو التاريخ الزمني الوارد في النقش التدشيني في الأرضية الفسيفسائية في الكنيسة الذي يشير إلى تاريخ التأسيس وهو سنة ٢٣٠م، حيث كانت الطقوس الدينية تؤدى في هذه المرحلة بشكل سري في قاعات منزلية أو في كهوف وديناميس تحت سطح الأرض بعيدًا عن أعين السلطة الرومانية الوثنية، والتي كانت ذروة فترة اضطهادها لأتباع الديانة المسيحية خلال فترة حكم الإمبراطور ديقلديانوس (٣٠٣-٣١٣م).

إعادة قراءة النقش التدشيني التأسيسي

يتكون النقش التدشيني التأسيسي من ستة أسطر بالأحرف اليونانية (**الأشكال ٣ـ٥**)، وترجمته للعربية كالتالي[٣]:

٣. قام بمساعدتي بقراءة هذا النقش باحثون فرنسيون من المعهد الفرنسي للشرق الأدنى وهم: باتيست يون وجوليان أليكوت وبيير لويس.

١ـ باسم الثالوث المقدس
٢ـ تقدمة من توماس ابن جيانوس
٣ـ المؤسس، كان قد تم الانتهاء من
٤ـ بيت العبادة هذا باسم القديس جورجيوس
٥ـ في شهر أبيلايوس في الزمن الثامن من الخمس عشرية لسنة ١٢٤
٦ـ بجهود سيرجيوس مساعد الكاهن
وترجمته للإنجليزية كالتالي:

1. In the Name of the Holy Trinity
2. From the Gift of Tomas Son of Gaianos
3. The Founder ،was Finished this
4. Oratory of Saint Georges in
5. The Month of Apellaios in the Indication 8، in the Year 124
6. By the Activity of Sergios Paramonarios (=Priest Assistant)

ENONOMTH[AΓSTΠΙAΔOC+
EKSΠPOCΦ/ΘωNAΓA AHO
MOHOKTSC TSETEΛIωΘHΘHTO
EYKTEPTOYAΓSΓEωPΠOYEN
HAΠCΛΛEωXPHï HΔS TOY PKΔ EΓS
HCΠOYΔHCEPΓIOYΠAPAMS

يلاحظ للوهلة الأولى عند قراءة النقش بأن (توماس ابن جيانوس) هو مؤسس هذه الكنيسة في بداية القرن الثالث الميلادي، ولكن بالتدقيق في سياق النقش نجد عدم انسجام في المعلومات الواردة فيه من حيث:

١ـ إن فترة التأسيس المذكورة والتي تعادل سنة ٢٣٠م لم يكن قد ظهر فيها مصطلح (الثالوث المقدس) والذي أُقر من قبل مجمع نيقيا الديني لاحقًا سنة ٣٢٥م.
٢ـ إن شكل الخط المستخدم في النقش لا يوحي أنه من الخطوط المستخدمة في العصر الروماني، بل هو أقرب لشكل الخطوط المستخدمة في العصر البيزنطي.
٣ـ إن الطراز المعماري والفني المستخدم في الكنيسة يرجح أنه من القرن السادس أو السابع الميلاديين، وتحديدًا في فترة الإمبراطور جوستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) حيث خلت الأرضية الفسيفسائية من الرسوم ذات الروح، مما يشير إلى أن أتباع هذه الكنيسة كانوا من أتباع الحركة المعارضة للصور الأيقونية ذات الروح، على عكس الأرضيات الفسيفسائية الأقدم التي كانت تشتمل على صور أيقونية.

في ضوء ما سبق وبالتدقيق في قراءة نص هذا النقش، نجد أن فهمه وقراءته المنسجمة مع الدلائل الأثرية هي أن من بنى أو جدد بناء هذه الكنيسة هو (توماس) ابن المؤسس (جيانوس) وأن كلمة (ابن) في النقش تشير إلى الانتساب للجد المؤسس وليس للأب،

٣. منظر عام لأروقة وهيكل كنيسة جورجيوس / رحاب بعد الترميم.

٤. أروقة الصلاة في كنيسة جورجيوس / رحاب يتقدمها النقش التدشيني والحاجز الأيقوني في الهيكل.

وأن (توماس) يُؤرخ لتدشين بيت العبادة منذ تأسيسه، حيث كان قد تم الانتهاء منه سنة ٢٣٠م على يد جده (جيانوس) في إشارة إلى المصلى الكهفي لإعطاء هذه الكنيسة المقامة على أرضه بعدًا دينيًا وتاريخًا كونها من أوائل دور العبادة في المنطقة، وأُطلق عليها اسم كنيسة القديس جورجيوس وهو القديس الذي حظي باحترام ديني كبير، وبناء على ذلك تصبح قراءة النقش كالتالي:

(باسم الثالوث المقدس، تقدمة من «توماس "ابن جيانوس المؤسس" كان قد تم الانتهاء من بيت العبادة هذا باسم القديس جورجيوس في شهر أبيلايوس من الزمن الثامن لسنة ١٢٤ بجهود سيرجيوس مساعد الكاهن).

ويلاحظ استخدام كاتب النقش «توماس» لعبارة (باسم الثالوث المقدس) من ما شاع استخدامه من عبارات في القرنين السادس والسابع الميلاديين، كما يشيد بجهود مساعد الكاهن المعاصر له المدعو (سيرجيوس)، واضح أن هذا النقش قد عمل على عجل وبأيدي أشخاص غير مهرة، وجاءت مساحة المستطيل الذي كُتب به النقش مزدحمة بالأحرف خاصة في السطرين الأخيرين، وقد كُتب تاريخ الكنيسة بالأحرف DPK حيث يرمز الحرف (p) للرقم (١٠٠) والحرف (k) للرقم (٢٠) والحرف (D) الذي يظهر كمثلث للرقم (٤)، والأحرف الثلاثة فوقها خط أفقي، فيصبح المجموع (١٢٤) وبإضافة تاريخ احتلال المقاطعة العربية في عهد الإمبراطور الروماني تراجان سنة ١٠٦م يصبح التاريخ (٢٣٠م).

من ناحية أُخرى فإن اسم (القديس جورجيوس) جاء مجردًا من الألقاب، ومن المستبعد أن يرد في النقش ما يشير إلى ألقاب له مثل (مظفر) أو (منتصر) كما ورد في قراءة أُخرى محتملة للنقش في السطر الرابع منه بوصف القديس جورجيوس بالمنتصر المظفر(الحصان ٢٠١٨: ٣٢)، حيث أن مثل هذه الألقاب هي ألقاب إمبراطورية رومانية لا تصاحب ألقاب القديسين والقساوسة والبطاركة[٤]، كما أن التقدمة في بناء الكنيسة كانت من شخص اسمه مميز وهو (توماس ابن جيانوس) وليس من قبل أشخاص اعتباريين غير معروفين على وجه التحديد مثل لقب: (أحباب الله السبعين) كما تذهب إلى ذلك القراءة الأخرى المحتملة للنقش في السطر الثاني منه (الحصان ٢٠١٨: ٣٢)، حيث أن إعادة التمحيص والتدقيق لهذا النقش تعزز هذه الاستنتاجات.

وكحالة مقارنة نجد أن كنيسة أم الزنار في مدينة حمص السورية قد وجد بها حالة مشابهة، حيث وجد أسفل هذه الكنيسة التي جُدد بناؤها سنة ١٨٥٠م مصلى كهفي يعود تاريخه إلى سنة (٥٩م)، وذلك بناءً على نقش حجري كُتب بالسريانية عثر عليه في تنقيبات سنة ١٩٥٣م، في موقع الكنيسة يشير إلى بناء بيت للعبادة في هذا التاريخ المبكر، كما يذكر النقش أسماء

٤. معلومة مصدرها د. خالد الروسان، متخصص بالنقوش اليونانية.

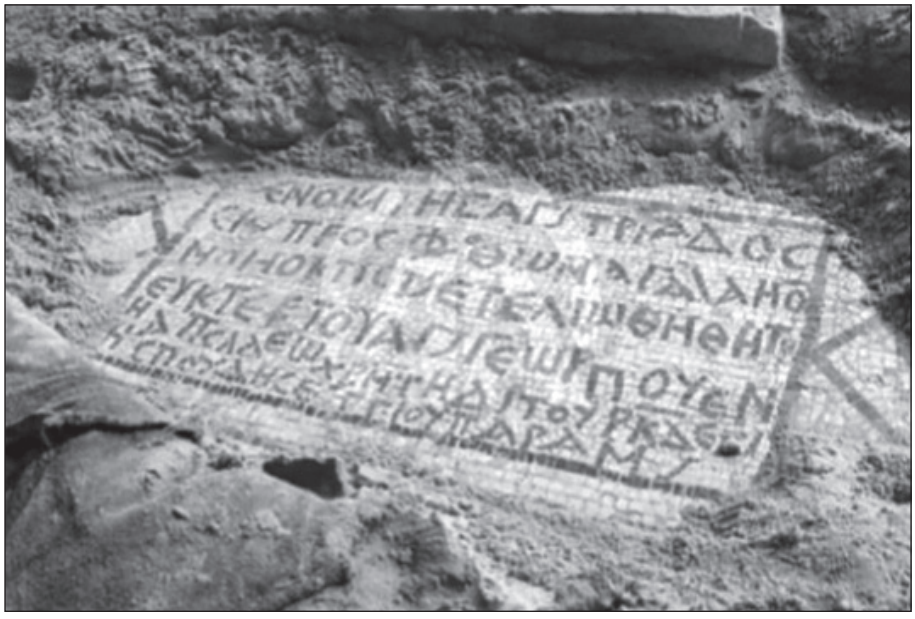

٥. النقش التدشيني لكنيسة القديس جورجيوس / رحاب.

رجال دين وأسماء قرى تبرع أهلها بنفقات العمارة للكنيسة، إضافة إلى العثور على جرن حجري مغطى بالنحاس وداخله زنار قماشي طوله ٧٤سم يعتقد أنه للسيدة مريم العذراء (موسوعة ويكيبيديا) وواضح أن تاريخ التدشين سنة (٥٩م) يشير إلى تأسيس المصلى الكهفي وليس إلى تأسيس الكنيسة وعمارتها التي تمت لاحقًا على الأرجح بعد إعلان ميلانو سنة ٣١٣م والذي سمح على إثره بإقامة دور العبادة والكنائس في أنحاء الدولة الرومانية.

كما عثر في بلدة أم القطين الواقعة شرق مدينة المفرق بحوالي ٣٠كم على نقش حجري بازلتي استخدم قمط باب لمصلى أو كنيسة يشير إلى بناء مصلى في حوالي سنة (٢٦٧-٢٦٨م) واقع على بعد حوالي ٥٠م إلى الشمال الغربي من الدير، وعليه هذه الكتابة: «عبد الله بن سادلوس بنى هذه الكنيسة سنة ١٦٢م»، ووفقًا لحساب البصرة فإن هذا التاريخ يعادل سنة ٢٦٧-٢٦٨م، علمًا بأن الكنائس الأخرى المكتشفة في أم القطين تعود للقرنين الخامس والسادس الميلاديين.

إن فكرة إنشاء مصليات في القرون الثلاثة الميلادية الأولى كانت موجودة وقائمة، خاصة في المناطق الآمنة البعيدة عن أعين السلطة الرومانية الحاكمة سواء كغرف سكنية، كما هو الحال في أم القطين أو دورا أوروبوس أو مجدو أو بشكل كهف كما هو الحال في كنيسة أم الزنار وكنيسة القديس جورجيوس في رحاب، وبالتالي فإن هذا التقليد التدشيني يؤرخ للمرحلة السرية في مراحل الديانة المسيحية وأداء طقوسها، واعتبر جزءًا مهما وأساسيًا في تاريخ تدشين الكنائس لما له من أهمية دينية وتاريخية في المنطقة.

من ناحية أخرى فإن نقش كنيسة أم الزنار يؤرخ لأقدم مصلى كهف مسيحي في المنطقة، وأنه أقدم من المصلى الكهفي في كنيسة رحاب يتلوهما مصلى أم القطين، في حين أن أوائل الكنائس المبكرة في المنطقة كانت كنيسة المهد وكنيسة القيامة واللتين دُشنتا سنة ٣٣٥م في فلسطين.

استنتاج

محصلة القول أن كنيسة رحاب البازيليكية بنيت أو جُدد بناؤها في العصر البيزنطي في القرن السادس الميلادي على يد شخص يدعى (توماس) فوق مصلى قديم يعود للثلث الأول من القرن الثالث الميلادي، أسسه شخص يدعى (جيانوس) وأن الكنيسة والمصلى أصبحا وحدة واحدة تحت اسم كنيسة القديس جورجيوس، وأن هذه الكنيسة تأخذ أهمية دينية كبيرة كونها تضم أحد أقدم دور العبادة المسيحية في المنطقة والتي أُسست سنة ٢٣٠م، كما لا يستبعد أن المصلى الكهفي كان يقوم حوله قبل بناء الكنيسة البازيليكية، كنيسة صغيرة أقدم تم التوسع بها وتجديدها في القرن السادس الميلادي مع الإشارة إلى أن الموقع الأثري ما زال بحاجة إلى مزيد من أعمال التنقيب والبحث الأثري.

كما أن تجمع حوالي (٢٣) كنيسة في بقعة جغرافية صغيرة لا تزيد عن ١كم مربع يشير إلى الأهمية الدينية لبلدة رحاب القديمة التي كان اسمها (كاسترو) وإلى أنها كانت مقصدًا دينيًا آمنًا للسكان المجاورين الذين أطلقوا على هذه الكنائس أسماء كبار القديسين مثل: (مريم العذراء) و(صوفيا) و(جورجيوس) و(يوحنا المعمدان) و(مينا) و(اسطفانوس) وغيرهم، كما أن إحدى هذه الكنائس كانت كاتدرائية وهي كنيسة (تلعة القرية) التي تحتوي على ثلاث حنايا، وتعرضت أرضيتها الفسيفسائية للتدمير الأيقوني لاحقًا.

شكر

أشكر كل من د. خالد الروسان والأساتذة: د. باتيست يون، ود. جوليان أليكوت ود. بيير لويس، وعبد القادر الحصان وسالم شديفات والزملاء في مديرية آثار محافظة المفرق: جميل القطيش، حسين الحقيل، وأحمد الكفيري على ما قدموه لي من مساعدة في إعداد هذا البحث.

المراجع

ابن الجزري، محمد
١٩٣٢ **غاية النهاية في طبقات القراء**، المجلد الأول، مكتبة ابن تيمية، عني بنشره لأول مرة ج. برجستراستر.

ابن منظور، جمال الدين محمد
٢٠٠٣ **لسان العرب**، حرف الراء، الجزء السادس، دار صادر.
الأحمد، خالد
٢٠٢٠ كنيسة أم الزنار في حمص، واحدة من أقدم كنائس العالم، **موقع زمان الوصل** (www.zamanalwsl.net).
الكيالي، محمد
٢٠١١ بيشة يشكك بأن كنيسة رحاب هي أقدم مصلى مسيحي، **جريدة الغد**.
الحصان، عبد القادر
١٩٩٩ **محافظة المفرق ومحيطها عبر رحلة العصور**،مطابع الأرز، الطبعة الأولى، ص: ٣٥٨-٣٩٠.
٢٠٠٠ كنيسة المظفر القديس جورجيوس في بلدة رحاب، المفرق، ص: ١٣٩-١٤٧ في **مجلة البيان**، جامعة آل البيت، المجلد الرابع.
٢٠١٨ قراءات جديدة لنقوش وكتابات فسيفسائية بيزنطية ساسانية سريانية وأموية مسيحية والمكتشفة في محافظة المفرق خلال أعمال التنقيب والمسوحات الأثرية ما بين الأعوام ١٩٩١-٢٠١، **حولية دائرة الاثار العامة** ٥٩: ٢٩-٣٨.
الحموي، ياقوت
١٩٥٧ **معجم البلدان**، المجلد الثالث، دار صادر ودار بيروت، ص: ٣٢-٣٣.
موسوعة ويكيبيديا
بلا كنيسة أم الزنار في حمص (www.wikipedia.com).